جمال م. أحمد
عصر النهضة في افريقيا

« امضِ سبيلك ايها الانسان . لا تدع حدا يحدك ، او ماضيا يؤودك . انت صانع نفسك ، سلطانها ، الرب . صغها كيف شئت ، في اية صورة رأيت . لا يزعنك وازع غير اختيارك . انزل بنفسك المسافل ، وارقَ بها الاعالي . عش ، وانت قادر ان تفعل ، كائنا صغيرا ، ووحشا لا يعنيك من امر ارضنا شيء ، وعش الها تكاتف الآلهة ، وفي وسعك ان تفعل . ارعَ اقدامك ان اردت ، وارعَ اعماقك ان اردت . سرْ على الارض اميرا ، وهو من حقك ؛ سرْ على الارض حقيرا ، وهو من حقك . ابعث النفس جديدة ، واصعد الدرج حثيثاً ، لا تخف . طوع الاشياء والاحياء ، انت انت الرب والانسان » .

بيكو دلا ميراندلا

ما ادري اية عاصمة من هذه العواصم الكثيرة تعرف . داكار في الغرب ، دار السلام في الشرق الجنوب ، اديس ابابا هنا في القرن ، عنتبة في الوسط القصي ، ام غير كل هذه التي اعدّ ؟ لا يهمّ ، اية واحدة منها تمثل الحيوية الخليط التي تعيشها القارة اليوم . تماما على النحو الذي فعلت البندقية و نابولي ، ايام عصر النهضة الآخر ، في مدن القرن السادس عشر ، في ايطاليا . مزيج لا يمكن للعين ان تتثبته : قيثارة وقمل ، جرارات وكاسحات تراب ومداخن ، حرائر من ديور ، ونتن اباط من لاغوس ، اغاني من ميكامبا ، وتشنجات هلن القديسة ، قرويون زاغت ابصارهم وقد اقتحم الدار شقر من الامريكان وصفر من الصين ، هذا يعلّم من اجل السلام ، وذاك يعلّم من اجل الرز ، وعاظ صفرت وجوههم من الصراخ ، وبقايا بغايا وقوادون . علب ليل تموج اعطاف روادها مع الخنافس والواتوتس ، ونقابات لا تنام الليل تدعو لوحدة العمال ، ولحى غابية ووجوه حليقة ، واحزاب

في المنفى ، ومشانق في الساحة ، وقادة متصوفة ، و زحافون في الليل ، يريدون مكانا في السياسة ، هذا اتى السياسة ترعى طموحه ، وذاك جاء السياسة ، ما كان غيرها يتفق وآلامه ، وفساد في الادارة والخلق ، يهيىء له الشذاذ من اسرائيل ، ومسارح يقوم عليها شباب وهب الشعر شبابه . كل شيء هنا في القارة . يعيش في افريقيا القرن العشرين انسان القرن السادس عشر في اوربا وفي انكلترا . كل عبقرياته وكل تطلعاته واكثر حماقاته ومباذله . يعيش رجل من طراز رابليه ومارلو جامح الفردية ، يرتاب في دينه هذا الذي لم ينتهِ به الى شيء ، كما وعد المرسلون . غاضب ، ضائق ، خلاق ، مبدع ، يريد ليعدو هذه القرون بينه وبين الرجل الابيض عدوا ، يعرف هذه الآلات وما تثر عليه من راحات مادية ، ويعرف هذا الشعر الجديد والموسيقى والمسرح الغائم والصور التي لا تبين وتهمهم .

في كلمة واحدة ، يريد الانسان الاسود ان يعيش عين الحياة التي ارتآها بيكو الشاعر الشاب لاهل مدن النهضة في ايطاليا على عهده . يريد ليلحق بالالهة ، سلطانا اميرا ، يصور نفسه كيف شاء ، لا كما شاء له النفوذ الاجنبي في بلاده ، صورة مسخا من الفرنسي او البرتغالي او الانكليزي . عين الثورة التي عرفت بعصر النهضة في اوربا . الثورة الوجدانية على الكنيسة في العصر الوسيط ، حين كان الانسان اداة في يد القس والكاهن ، قبل ان يكتشف نفسه وكونه وذكر الاغاريق من قبل . ازال الغشاوة من عينيه غاليليو وكوبيرنكس وبويل ودانته و مايكل انجلو ، واتى العلماء من الشرق وقد سقطت القسطنطينية ، يحملون من جديد ارسطو و ارسطوفانيس ، يعيدون للانسان مكانه في الكون ، قطب رحى ، يغيظون الكنيسة ، يهدمون منها قواعد السلطة هنا في هذه الحياة ، يعينهم افذاذ من رجال الدين في فرنسا وسويسرا وهولندا ، يقولون مع القائلين ، لتكن لنا اوطاننا نحن ، لا عالمية تحكمها روما ، لله ما لله ، ولقيصر ما لقيصر ، وللانسان ما للانسان . غلت الكنيسة يد الانسان وعقله طول عصر الظلام ، فلتنصرف لرعاية شؤون الروح ، لتكون اسبانيا بلدا وفرنسا وانكلترا القرن السادس عشر . انتهت الامبراطورية المقدسة ، مع تفتح الاذهان والقلوب وتفجر الوجدان ، وقويت السواعد ، وكانت رخوة من قبل ، على العمل من اجل الوطن المحدد المحدود ، بلغته ودينه الجديد وقسماته الخلقية ولغته الواحدة .

وهكذا افريقيا المعاصرة . خلصت من الاستعمار الاوربي الا اقله ، وكانت تؤد عقله ويده ، على النحو الذي فعل الكهنة والقسس على العهد الوسيط ، ان شئت ، او عهد الظلام في القارة الاوربية . يسعى انسانها المعاصر جاهداً ليعرف

ماضيها كما سعت اوربا لتعرف تراثها الاغريقي ، ودينها المسيحي الحقيق ، ما لم يلغ فيه كهنة او قسس . تسعى لتعود للطريق وقد خرجت منه مقهورة ذليلة في القرن السادس عشر حين اتت مراكب الغرب ، تسوق الرقيق وتأخذ العاج والزيت . اتوا القارة وقد خلصوا من ربقة الكنيسة ، واتسعت بعدها الآفاق والقدرات . ضاقت بعبقريتهم الجديدة قارتهم الصغيرة ، فخرجوا يضربون في الارض ، واتوا القارة يغتالون سيرها للامام ، حذقا مرة وعنفا مرة . كان ذلك على عهد عصر النهضة الاخير في القرن السادس عشر ، كما قلت . انا لا اتزيد على الحق او التاريخ حين اقول « يغتالون سيرها للامام » ، فما اتوا قارة فراغا كما كان يقول المؤرخون الاولون . اتوا قارة عرفت الصناعة والادارة والحرب والعلم والفن ، ولولا خشيتي من ظنك بي الاسراف في الذي اصف ، لقلت لك ان افريقيا ذلك الزمان ، افريقيا القرن السادس عشر ، لو تركت وحدها ، لاتخذت طريقا لحضارة من صنعها هي ، مختلفة - ربما — عن حضارة الاوربيين ، لا اوضع منها على التأكيد او احقر . هبطت اوربا على التقدم الافريقي هبوطا صاعقا حرمته الحركة والمسار ، ولك ان اردت ان تقرأ ما كتب المعاصرون حينذاك عن جاوا وتمبكتو وجن وكلوا ومالندي وممباسا ، لترى معي ان هذه المدن ما كانت اقل حيوية في العلم والصناعة والتجارة والفنون من امستردام على ذلك العهد ، وباريس ومدن النهضة الايطالية . خرجت اوربا من عصر الظلام في القرن السادس عشر ، لتدخله افريقيا وينزل عليها الستار الحديد ، كما يعبرون . دخلت افريقيا عصر الظلام والذلة والخنوع مع البرتغال والاسبان والانكليز والالمان والهولنديين والدنماركيين والفرنسيين حين اتوها غزاة حذقة ، ينهبون خيراتها نهبا ويخربون روحها تخريبا ، حتى كان عقدنا هذا الاخير من القرن العشرين . خرجت القارة السوداء في الستينات تتحسس طريقها الذي فقدته منذ اربعة قرون ، وقد عشيت عينها في الظلام كما قلت ، والذي يتحسس الطريق يتأرجح بين الغباء والحكمة على النحو الذي وصفت قبل قليل حين بدأت .

في وسعي ان امضي في هذه الرياضة الذهنية ، اقابل بين افريقيا القرن العشرين واوربا القرن السادس عشر ، ولكني احب ان اقف قليلا هنا احاول ان اجيب على بعض ما يخطر في بالك من تساؤل . ستقول : كان عصر النهضة في اوربا احياء لعهد روما واثينا من قبل ، وكان امتدادا للعصر الوسيط ، هيأ له كما رأيت دافنشي وغاليليو ودانته ، تاريخ قديم حافل ؛ وما كانت افريقيا كذلك

في العهد القديم او الوسيط او الحديث . قال دافزاك ، الخبير الفرنسي بالقارة ، منذ مائة سنة مضت فقط (١٨٦٠) : « ان القارة الافريقية لا تنتمي ، وما انتمت من قبل ، لتاريخ النمو الحضاري ... انها تحب عزلتها هذه القصية وجهلها وغفلتها ، وتدفع عنها بالبقاء عدوة لغيرها غير كريمة » . مغلقة على نفسها ، سعيدة بذلك ، تاريخ انسانها بضع من التاريخ الطبيعي للقارة ، انهارها ، اشجارها ، وحوشها ، حيواناتها ، لا يبعد عنها ولا تبعد عنه . رجل النهضة في اوربا عبر البحار ، وقاوم التسلط الفكري ، والطغيان في الحكم ، ورأى الآفاق خير رؤية ، وسار نحوها لا يخاف . وسخاء الطبيعة الاوربية ، قابلها بشح غابات افريقيا وصحاريها التي لا تنتج ، الثراء الطبيعي علّم الانسان في اوربا ان يدبر شؤونه المالية والادارية ، وكان من آثار هذا ان تغلب على السود والصفر ، وان قادهم ، منذ ان فتح عينيه و ذهنه على عهد النهضة الآخر من القرن السادس عشر . اين انسانك في القارة الافريقية من هذا كله ؟ انى له ان يلحق بالموكب ، وقد تقدم في الطريق منذ اربعة قرون ؟ كيف لك ان تحسبه الآن في القرن العشرين ؟ انه لو ترك وشأنه حينذاك ، لمضى سبيلا في المدنية ، ما كانت لتشبه المدنية الاوربية بالطبع ، ولكنها لم تكن لتبعد عن انجازها هذا البعد ، الذي خلقه — في زعمك — جشع الانسان في اوربا وغروره .

لنقف قليلا نعالج هذه الاسئلة من وثائق التاريخ نفسه ، لا من الاوهام والاماني ، من مدونات الرسل الذين اوفد ملوك الاسبان والبرتغال ، واهل المال والثراء في الجزيرة البريطانية ، ولن نستطيع في بحثنا هذا الذي بين يديك ، ان نقف الا عند قلة من هؤلاء ، وان كنا لا نخاف على الصورة الا تكتمل ، لاننا نعود اليها كل حين في هذه القصة العظيمة .

كيف كانت القارة قبل ان تمسها يد الاوربي ؟ من اصدق الذين اتوا الشرق فيها يدرسون ديوارث باربوسا ، طوّف الساحل الشرقي سنة ١٥٠٠ ، واتاها من بعد سنة ١٥١٧ . كانت تنمو على مهل ، على النحو الذي فعلت اوربا آنذاك ، من داخلها ، هادئة لا يعوق تقدمها البطيء ، الا تلكم اللحظات في التاريخ ، كل التاريخ ، حين يحتدم النضال بين اهل العزم والطموح في القبائل العدة . قال باربوسا يصف سفالا ، وكانت قبل ان يبني البرتغاليون لورنسو ماركيز ، ميناء التجارة واللقاء في موزمبيق وما وراءها من اقليم :

« والتجارة في سفالا تسير على نحو مدبر مرسوم : تأتيها القوارب الصغيرة ، يسمونها الزمبكوس — لعلها السنابك المعروفة هذه الايام — من ممالك كلوا و ممباسا

مالندي ، يحمل العرب عليها اقمشة القطن ، بعضها مزخرف كثير الالوان ، وبعضها الآخر ابيض ، او ازرق ، ويحملون انواع الحرير عدة ، وانواع الخرز والصوميت ، حمراء ، صفراء ، و رمادية ، تأتي كلها في مراكب كبيرة عبر المحيط من شمالي غربي الهند في مملكة كامباي ، يشتريها تجار العرب على الساحل في مالندي وممباسا ، بمقادير من الذهب ، يزنونها على نحو مقدر معلوم لقاء كل سلعة يشترون ، يعود بعدها التجار من الهند فرحين بالذي ربحوه ، ويأتي بها العرب هنا في سفالا لمزيد من الذهب ، يأتي به الاهلون من مملكة بينا مبتابا في الداخل البعيد ، يعطونه لتجار العرب مع مقادير من العاج ، لا يزنونها فهم لا يعرفون » .

ولنترك التجارة للعلم والثقافة ، لنقرأ معا ليو افركانس عن غربي القارة هذه المرة ، يصف مقاعد العلم والبحث في جن وتمبكتو . يصف هذه الاخيرة وهي تقاوم ، في جلد ، جحافل الشمال تدق ابوابها ، سنة ١٥٩٠ ، يقودها مرتزق من الاسبان : « فيها يعيش الاطباء والقضاة والفقهاء ، سدنة العقل والعلم والحكمة ، ينفق عليهم في سخاء لا ينقطع ، سيد البلاد يرعى امنهم كله ، والٍ كفاها كل شيء يهمها ، لينصرفوا لا يخافون مسبغة ولا شرطة ، الى هذه المخطوطات التي يدرسونها تأتيهم كل يوم من الشمال الافريقي ، يعيدون كتابتها صحيحة مقروءة ، يبيعونها في سوق الكتب ، وهي نافقة » . في هذا الامان والعيش الرفيه كتب محمود كاتي تاريخ الفتاش يصف مأساة بلاده ، باللغة العربية التي كانت تقوم مقام اللاتينية ذاك الزمان في ذلك الشطر من القارة . ولهذا الامان والعيش الرفيه ، وقف احمد بابا امام غزاته كريما عزيزا يأبى عليهم ان ينتفعوا بجاهه وعلمه ، وسيق في الاغلال سوقا الى السجون في الشمال ، لانه كان — فيما زعموا — يدبر ثورة على الغاصبين تمبكتو و جن و جاوا . عالمان من خليط الزنج والعرب في القارة جديران بدرسنا وببعثهما من جديد ، آثارهما عربية افريقية .

وما كانت الحضارة الشتيت في القارة علما صرفا او تجارة خالصة . كانت في القارة السوداء فلسفات في الحياة ، يصدر عنها الناس في فكرهم وفي ما يأتون من اعمال ، ولعل خير ما ينبغي ان نشير اليه في هذا الصدد هو دراسات القس تمبل في « فلسفة البانتو » لغة الشعوب التي تعيش في اكثر بقاع وسط افريقيا والجنوب. درسها القس الكدود دراسة متقنة عبر السنين ، وكتب من خلال عيشه الطويل في الكونغو وترحاله في زامبيا الحديثة وزمبابوي المستقبل ، كتابا ينير لنا بعض الغاز الحياة عند هذا القبيل من سكان القارة ، وهو القبيل الذي ما زال يرسل الرسل ،

وينبت الانبياء كما رأيت قبل قليل عقب استقلال زامبيا . يقول تمبل وقد شرح شرحا مقنعا هذه الفلسفة الافريقية الخالصة : « ان هذه الصفحات من فلسفة البانتو، عبرة لنا نحن الذين نتصدى اليوم لتعليم افريقيا . ينبغي ان نقف قليلا عندها نتملى الذي كنا نعبر عنه بالفراغ الافريقي . نملؤه كيف شئنا . مضت سنون وسنون ونحن نحسب انفسنا الاساتذة ، نمدّن الافريقي ، وهو لوحة سوداء ، نكتب فوقها ما نشاء ، نصوغهم في قوالبنا نحن ، اطفال كبار لا قاعدة عندهم ولا رؤية، لا عناء في سوقهم سوقا لحضارتنا نحن وثقافتنا نحن . ونعيش بينهم حينا كما عشت انا ، فاذا الشاشة تزدحم بالرؤى والفلسفات ، تقهرك قهرا على احترام حكمتها ودوافع اعمالها المحيرة لنا نحن ، الذين نمونا نموا آخر » . ويمضي القس الكدود يصف ما بين الانسان في اوربا وافريقيا من نقط التقاء ، ما وعيها العلماء ولا الاداريون من قبل ، وكان من الخير لهم ولافريقيا ان يفعلوا منذ التقوا قبل قرون .

ترى معي اذاً ان افريقيا ما كانت فقيرة في المادة ، وما كانت فقيرة في العلم والفلسفة ، حين اتت مراكب الاوربيين ، تحمل منها الذهب والزيوت والعاج ، وقبل كل هذا الرقيق ؛ توقف بهذا اللقاء التعيس تقدم القارة من داخلها واعماقها ، كما فعلت طوال عهدها في التاريخ . عادت اليوم الى حيث بدأ انقضاض اوربا ، وانتهى تطورها المستقل ؛ عادت تبدؤه من حيث وقف على ضوء الذي وقع في اوربا من تقدم آلي ووجداني ، وهي خدرة ناعسة في هجير الاستعمار ، تتلوى تحت عصاته . هذه ناحية ، وعلى ضوء ما عرفت عن نفسها وتعرف كل يوم ، من ناحية . كارهة ان تترك هذا وراءها ، تأخذ عنه السلوك في الحياة ، حريصة مع هذا الا يعوقها هذا النشاط عن الانتفاع بالذي استحدث انسان اوربا على ايام غفوته . كل هذا لان الفترة الاستعمارية — شطرها الاخير الذي بدأ مع مؤتمر برلين ، وشطرها الاول الذي بدأ مع المغامرين على الساحل — لم يكن الا « حدثا كبيرا في موكب الحياة الافريقية » كما يقول ديفدسن ، فصلا سبقته فصول وتعقبه آخر ، تمزج آثاره بحياتها وتخلطه بدمها ، تعزز به قوتها وقدرتها على السير امام .

ولنعد للانسان الافريقي ، مكانه في هذه النهضة . هذه ارضه في القديم وعلومه وفلسفاته وفنونه . مَن لها كلها ليبعثها حية في اطار حديث ، يحث على المزيد منه مجددا يخاطب العقل المعاصر ؟ مَن يقابل في الصورة الافريقية الآن ، رجال النهضة الاولى ايام تمردت القارة الاوربية على العصر الوسيط ؟ مَن يقابل رجال عصر النهضة الآخر ، ايام ترجمت اوربا هذا التمرد الفكري ، اعمالا باليد ، ومخاطر بالعرق ؟